ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: https://eduj.uowasit.edu.iq

Dr. Mahdi Nasseri

Dr. Rasoul Dehqan-Zad

Resea. Ayad Hashem Al-Marei

University of Qom, Faculty of letters and Humanities

Email:
M.naseri@qom.ac.ir
R.dehghanzad@qom.ac.ir
Ayad33889911@gmail.com

Keywords:

deletion , proof , substitution , advance , delay

Article info

Article history:

Received 20.Jul.2024

Accepted 8.Aug.2024

Published 25.Aug.2024

The rhetorical effect of multiple Quranic readings (Qirā'āt)

A B S T R A C T

In Islam, al- Qirā'ah (pl. al-Qirā'āt; literally 'recitations or readings') refers to the ways or fashions that the Quran, the holy book of Islam, is read or recited. The Holy Qur'anic texts are considered a source of sciences in general, and a source of rhetoric in particular, because the Holy Qur'an has baffled Arabs and non-Arabs with its rhetorical texts that challenged the people of its time and every time. In this regard, the multiple Quranic readings are considered one of the miraculous rhetorical images represented by deletion, substitution, advancement and delay. The deletion of some words by some readers, and their inclusion by others, did not cause confusion in the text, but rather the same meaning was intended by both readings. Thus, the substitution of words in the different readings represented a miraculous rhetorical image, since the reading was a general image, and what was substituted for it was a detailed image of the same meaning. Likewise, the advancement of some words and their delay in others created another rhetorical image due to showing specialization, importance, or expressing glorification, or advancement of the tangible over the rational, and other rhetorical reasons for advance.

© 2022 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/eduj.Vol56.Iss2.4060

الأثر البلاغي لتعدد القراءات القرآنية

أستاذ مشارك د. مهدي ناصري أستاذ مشارك د. رسول دهقان ضاد الباحث: أياد هاشم المرعي

جامعة قم– كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الملخص:

مثّلت النصّوص القرآنية الكريمة منبعاً للعلوم عامة بنحو العموم، ولعلم البلاغة بشكل خاص، لما كان القرآن الكريم قد أعجز العرب والعجم بنصوصه البلاغية، التي تحدى بها أهل زمانه وكل زمان، فكانت القراءات القرآنية المتعددة تمثل إحدى الصور البلاغية الإعجازية، المتمثلة بالحذف والتبديل والتقديم والتأخير، فكان الحذف لبعض الكلمات عند بعض القرّاء، وإثباتها عند البعض الآخر لم يسبب إرباك في النص؛ بل المعنى عند القراءتين كان نفسه ، وهكذا تبديل الكلمات

في القراءات المختلفة كان يمثل صورة اعجازية بلاغية، لما كانت قراءة بصورة مجملة، والمبدلة عنها صورة تفصيلية للمعنى عينه، وكذا التقديم في بعض المفردات وتأخيرها عند الآخرين رسم صورة بلاغية أخرى بسبب اظهار التخصيص، أو الأهمية، أو بيان التعظيم، أو من صور تقديم المحسوس على المعقول، ونحوها من الأسباب البلاغية الداعية الى التقديم.

الكلمات المفتاحية: الحذف ، الاثبات ، التبديل ، التقديم ، التأخير.

اولاً: الحذف:

يجري الحذف والاثبات في النصوص العربية بنحو العموم لوجود أسباب داعية لذلك من الوجهة البلاغية، لما يدلّ على اللفظ المحذوف من ضمائر مقتنصة من النص نفسه، أو من خلال السياق، أو من خلال الاشارات، فبالتالي يكون حذف المفردة متوجباً على البليغ في نصه، والا لكان اثباتها مخلاً بالنص العربي لحشوية الكلام الزائد واعتباطيته، وقد دلّ عليه ما في الجملة من دليل واضح لا يقبل المغاير له، وتارة أخرى لا يكتفى بالحذف، بل يجب الاثبات للمفردة، لما يسبب حذفها خللاً في فهم المراد، أو الاشتباه في المقصود، أو الدوران والترديد بين أكثر من فردٍ خارجي، وبالتالي يتوجب على البليغ ذكره؛ لكيلا يحصل الاشتباه عند المتلقي، وبالتالي يشذ عن المقصود منه من ذلك النص المخاطب به.

وقد ذكر بعض العلماء أن هناك من الدواعي للإثبات للمفردة التي يقتضيها الحال، كالتعظيم للمثبت، أو التبرّك بذكر اسمه، أو يكون ذكره لأجل إهانته وتوبيخه وإذلاله، ومن الدواعي الأُخر للإثبات هو للتعيين، بمعنى انحصار الامر بالمثبت دون غيره (السكاكي: ٢٠٠٧م: ٣٦٥)، كقوله تعالى: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ) (الفتح: ٢٩)، فانحصر الأمر بالنبي الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله) دون سواه، أو كونه فعلاً يستفاد منه التجدد، أو ظرفاً يورث الاحتمال والتجديد (التفتازاني: ١٩٨٤م: ٤٩).

أما الحذف فهو يكون للاختصار في الكلام، أو الاحتراز من العبث والكلام الزائد، والحشو الواقع فيه، أو يكون لضيق المقام، أو يكون تركه تعويلاً على عقل المتلقي للاستدلال عليه، وهذا ما يمكن فهمه من خلال السياق البياني والبلاغي للنص المذكور (القزويني: ٢٠٠٣م: ٨٦)، وعليه، يكون الحذف ذو فوائد بلاغية يقتضيها مقام النص، وكذلك الاثبات للفظ المقصود، إذ ان اللفظ يزيد من القيود، وبالتالي تتضيق دائرة الحصر للمفهوم المقصود، وحذف القيود يوسع من دائرة الاحتمالات الممكنة.

ومن الشواهد على الحذف والاثبات في القراءات القرآنية المتعددة، ما ورد في قوله تعالى: (فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) (الحديد: ٢٤)، إذ قرأها نافع، وابن عامر، وأبو جعفر، وقالون، وورش بحذف كلمة "هو"، وجعل خبر "ان" كلمة "الغني"، وجعل كلمة "الحميد" صفة، وهذه القراءة موافقة للمصحف الشامي والمدني (الجزري: ٢٠٠٧م: ٣: ٣٢٨)، بينما باقي القراء أثبتوا كلمة "هو" على أنه ضمير فصل بين الاسم والخبر، وهذا الضمير يسميه البصريون "الفصل"؛ لأنه يفصل الخبر عن الصفة، والكوفيون يسمونه "عماد"؛ لأنه يعتمد عليه الخبر، وهذه القراءة موافقة لأهل مكة، والبصرة، والكوفة (الأزهري: ١٩٩٦م: ٣: ٥٧)، ويمكن توجيه القراءة الأولى التي تثبت كلمة "هو" من خلال السياق الوارد في النصوص القرآنية الأخرى، كقوله تعالى: (وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) (الحج: ٦٤)، وقوله تعالى: (للهِ ما فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) (لقمان: ٢٦)، وقوله تعالى: (يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) (فاطر: ١٥)، وقوله تعالى: (وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) (الممتحنة: ٦).

فتكرر كلمة "هو" مرات خمس في نصوص القرآن الكريم مع قوله تعالى "الغني الحميد"، بل في سورة "الممتحنة" تكرر المقطع عينه مع كلمة "هو" بدون أي إضافة أو نقصان، ولم ترد مرة واحدة فقط جملة "الغني الحميد" بدون كلمة "هو"،

وهذا من المرجحات لقبول القراءة المثبتة لكلمة "هو"، دون القراءة الثانية التي تحذفها، وإن كانت كلتا القراءتين تفيدان المعنى عينه، وتعني قراءة الحذف: أن الله الغني لا يفتقر الى أحد من خلقه، وهو المحمود على كل حال، أي تكون كلمة "الغنى" أنه غير محتاج لأحد، فهي ناظرة لصفته جل في علاه، فالله غني عن خلقه وعن شكرهم له؛ لأنه جدير بذلك، إذ صفة الغنى حقيقية له، بينما على قراءة الاثبات يكون المعنى: أن الله تبارك وتقدس هو الغني دون الخلائق المفتقرين الى غناه، وكل من يملك أي شيء لا يكون غنياً، إذ يبقى الله تعالى هو الغني، فانحصر معنى "الغنى" به تبارك وتقدس.

وعليه، فالقراءتين الواردتين للنص القرآني المتقدّم – سواء بالحذف أو الاثبات – المعنى باقٍ نفسه بلا تغيير، فهو جلّ في علاه الغني الحميد عن خلقه دون سواه جلّ وتقدّس في علاه.

ومن الشواهد القرآنية الأخرى على الاختلاف بين الحذف والاثبات للكلمة في القراءات المتعددة، ما ورد في قوله تعالى: (وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهارُ) (التوبة: ١٠٠)، إذ اختلفت القراءات بين الاثبات والحذف للكلمة "من" قبل كلمة "تحتها"، فالقراءة المشهورة كانت بدون وجود كلمة "من" في الآية المباركة، أي محذوفة من النص القرآني المقدس، بينما هناك من قرأها بوجود كلمة "من" قبل كلمة "تحتها"، فقد قرأها ابن كثير بزيادة "من" قبل كلمة "تحتها"، فتكون "من تحتها الأنهار" مع جر التاء بالكسرة (الجزري: ٢٠٠٧م: ٣: ١٠٠)، وهذه القراءة موافقة لرسم المصاحف المكية منها (الداني: ٢٠١٠م: ٥٨٠)، بينما قرأها باقي القراء بدون كلمة "من" في الآية السابقة، وفتح تاء المفعول به "تجري تحتها الأنهار" (الشوكاني: ١٩٩٩م: ٢: ٣٩٨)، بينما أثبتوا "من" في جميع آيات المصحف عدا هذا المورد؛ وذلك للاتفاق (محيسن: ١٩٩٨م: ٥: ١٦)، ويمكن توجيه القراءة للآية السابقة من خلال إشارة حرف الجر "من" على ابتداء الغاية (الاندلسي: ١٤١٣هـ: ١: ١١٢)، وذلك يدل على سعة الأنهار من خلال نسبة فعل الجري لها، وانما يجري الماء وحده تجوزاً وتوسعاً (الشوكاني: ١٩٩٩م: ١: ١١٣)، ويظهر الفرق بين القراءتين من خلال المعنى، فإذا أُلحق الحرف "من" فهو يدل على أن الأنهار تجري من تحت الأشجار وأسفل الجنات (الجوزي: ٢٠٠٢م: ١: ٢٥)، أما مع قراءة الحذف للحرف "من" فهي تدل على اختصار حالة جريان الأنهار، فجاء هذا الوصف لتصوير الحالة للمتلقي لقصد الترقب (عاشور: ٢٠٠٨م: ٢: ٣٣)، وعليه المعنى القرآني للآية هو نفسه رغم اختلاف القراءتين بين الحذف والاثبات، وهذا ما تم توجيهه بلاغياً.

وأيضاً قوله تعالى: (قالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَإِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ) (البقرة: ١٣٣)، قد اختلف القراء بين اثبات وحذف كلمة "ابائك" في النص القرآني وفقاً للقراءات القرآنية المتعددة، فضلاً عن وجود قراءة شاذة تبدّل الكلمة من "آبائك" الى كلمة "أبيك"، إذ قرأ جمهور القراء الآية بإثبات "اله ابائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق"، بينما هناك قراءة شاذة منسوبة الى أبي بن كعب، تقرأ بحذف "آبائك" فقرأها "نعبد الهك واله إبراهيم وإسماعيل واسحاق" (الاندلسي: ١٤١٣هـ: ١: ٤٠٢)، وهناك من قرأ الآية الكريمة – وهو الحسن – يقرؤها: " نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ"، أي إله أبراهيم، إسماعيل، واسحاق، فهو بهذه القراءة يكره أن يجعل اطلاق لفظة "الأب" على "العم" (الالبيري: ٢٠٠٢م: ١٨٠)، فكانت الأسماء الثلاثة –إبراهيم وإسماعيل واسحاق – تمثل بدل أو عطف بيان، فتكون القراءتان بالدلالة نفسها، فلم يختل المعنى، بل في الآية الكريمة دليل اطلاق لفظ "الأب" على "العم"؛ لأن "إسماعيل" عمّ "يعقوب" وليس والده عليهم جميعاً سلام الله (الزمخشري: ٢٠٠٥م: ١: ١٩٣).

ثانياً: التبديل:

من أوجه الاختلاف الحاصل بسبب القراءات المتعددة هو حصول تبديل لبعض الكلمات بين قراءة وأخرى، هذه الكلمة المتبدلة مغايرة تماماً للكلمة المبدل عنها، سواءاً في النطق، أو في الشكل، أو في التشكيل والحروف، وقد اعتمد القرّاء بطبيعة الحال على قواعد مهمة في كيفية القراءة، واعتماد المشهور من القراءات دون الشاذة منها، وإن كان لا يستبعد أن

تكون تلك القراءات الشاذة أيضاً أنها قد وردت عن الحق سبحانه، سيما مع من يعتقد بأن القرآن الكريم قد نزلت نصوصه على أحرف سبعة.

فمن الشواهد على ذلك التبديل، ما ورد في قوله تعالى: (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً) (البقرة: ٢٤٩)، فقد قرأ جمهور القراء الآية السابقة "كم من فئة"، بينما قرأها أُبي بن كعب "كأين من فئة" (الفراء: ١٩٩٦م: ١: ١٦٨)، فحصل تبديل كلمتي "كم من" الى "كأين" في هذين القراءتين المذكورتين، و "كأين" هنا تعني "كم" في اللغات، وإذا ألقيت عليها "من" فالاسم النكرة يخفض وينصب، فالنكرات لا تسبق أفاعيلها (الفراء: ١٩٩٦م: ١٦٩)، وتستعمل كلمة "كم" للسؤال عن الشيء المبهم، سواء من العدد أو الجنس، فتكون بحاجة الى الاستعلام والتمييز، بينما تشير كلمة "كأين" على الكثرة والاستفهام (منظور: ١٤١٤هـ: ٢: ١٥٩)، مع ذلك، ففي كلا القراءتين تعني غلبة الفئة القليلة للفئة الكثيرة بالعدد بعون الله وتوفيقه (الالوسي: ٢٠٠٦م: ٢: ١٧١).

فالأثر البلاغي المترتب على القراءتين هو عند "أُبي" تبدلت القراءة الى الاستفهام، وهذا يشير الى السؤال الاستفهامي، عِبر الأداة "كأين" ويكون السؤال بها عن العدد، بينما السؤال على وفق الأداة "كم" يكون السؤال عن الشيء المبهم، بغض النظر عن المسؤول عنه عدداً كان أو جنساً.

وكذلك من الشواهد القرآنية الأخرى التي حصل فيها التبديل للكلمات بسبب تعدد القراءات، ما ورد في قوله تعالى: (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ) (يونس: ٩٦)، فقراءة المشهور من القراء هي " فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ "، وهناك بعض من القراء قرأوها "تنحيك ببدنك" (القرطبي: ١٩٥٢م: ٨: ٣٧٩)، وهناك من قرأ قوله تعالى: (فَالْيَوْمَ نُنَحِّيكَ بِبَدَنِكَ) (يونس: ٩٢)، باختلاف تخفيف وتشديد "الجيم"، إذ قرأها يعقوب وحده بسكون النون الثانية، وتخفيف الجيم، والباقون قرأوها بالتشديد، وقراءة التخفيف تكون من "أنجى"، وقراءة التشديد تكون من "نجّى"، وكلاهما فعل متعدٍ من الفعل "نجا، ينجو"، وقد وردا جميعاً في آيات القرآن الكريم (الفسوي: ١٩٩٣م: ١: ٦٣٧)، فكلمة "تنحيك" تعني ابعاده عن قاع البحر، أي نطرحك جانب البحر بعد الغرق، أي تنحية جسد الفرعون وابعاده الى أرض الساحل من البحر (الاندلسي: ١٤١٣هـ: ١: ٦٥٣)، وعند التأمل بين القراءتين المختلفتين في اللفظ، نجدهما يختلفان في المخرج أيضاً (سيبويه: ١٩٨٢م: ١: ٤٣٣)، ويختلفان في صفتي الجهر والهمس أيضاً (تركستاني: ١٩٨٤م: ٨٧)، فلا مسوّغ للإبدال بينهما، وبالتالي فالكلمتين يختلفان في النطق، لكنّ المدلول المعنوي لهما واحد (الفراء: ١٩٩٦م: ٢: ١١٦)، والأثر البلاغي بين تلكم القراءات يختلف، ففي قراءة " نُنَجِّيكَ" من الفعل "نجا"، سواء ببدنه، أو نجاته من عذاب الكفر الذي كان عليه فرعون، بينما قراءة "تنحيك" تعني إبعاد بدنه فقط من قاع البحر، دون الإشارة الى نجاته أو عدمها.

ومن التبديل الوارد في النصوص القرآنية بسبب تعدد القراءات، ما ورد في قوله تعالى: (فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللهِ) (الجمعة: ٩)، قرأها جمهور القراء كما في النص أعلاه، وهناك قراءة أخرى قرأت كلمة "فاسعوا" قرأوها "فامضوا"، وهذا التباين والاختلاف يكاد يكون شكلي، يمس مسألة العرض والترتيب أكثر من مساسه جوهر النص القرآني، وهذا ما يتجلى لأي شخص متطلع بمفردات اللغة العربية (قابة: ١٩٩٩م: ١٣٠)، بل يمكن الرجوع الى النصوص والأحاديث النبوية لأجل معرفة كيفية فهم المراد من النص القرآني، على وفق القراءات المتعددة للنص، وحسن الفهم له.

فلفظ "السعي" في قوله تعالى: (فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللهِ) (الجمعة: ٩) يدل على تناول المشي، والإسراع، مع العمل، لذلك، فكانت هذه القراءة مفصلة لما اجملته القراءة الثانية التي تدبل فيها لفظ "فاسعوا" الى لفظ "فامضوا" (خالويه: بلا: ١٥٧)، وهذا ما يجعل القراءتين أحدهما مجملة والأخرى مفصلة لما أجملته الأولى.

وعليه، يكون معنى الآية على وفق القراءتين واحداً دلالياً، على الرغم من التبديل الحاصل للمفردة.

وهناك بعض القراءات نُسبت لراوٍ واحدٍ، أو مقرئ واحد، قد روى ما سمع عن النبي الاكرم محمد (صلى الله عليه وآله)، ويمكن عدّ قراءته من القراءات التفسيرية، كما ورد في قراءة ابن مسعود لأكثر من مورد من موارد آيات المصحف الشريف، وقد خالف فيها مشهور القراء، وما تواترت عليه القراءات، وتسالم عليه المسلمين، فتكون قراءة ابن مسعود ونحوه قراءة تفسيرية لنصوص آيات القرآن الكريم، وقد كان يروى مثل ذلك من بعض الاصحاب والتابعين، مما يدل على صحة تأويل هذه النصوص القرآنية (الزركشي: بلا: ١: ٣٣٧).

ثالثاً: التقديم والتأخير:

الأصل في الكلام العربي تقديم ما حقه التقديم، وتأخيره ما حقه التأخير في صياغة الجمل العربية، لكن هنالك بعض الحالات الي تختلف فيها الصياغة، بحيث يتقدم المؤخر، وبالعكس، على وفق المقاصد البلاغية المناسبة لذلك، فيتغير الترتيب العام لصياغة الجملة، وهناك حالات شاعت في بعض كلام العرب من النصوص الشعرية والنثرية في رسائلهم ومراسلاتهم حصل فيها تقديم المفعول به على الفاعل، أو الخبر على مبتدأه، ونحو ذلك، وهذا ما ثبت أيضاً في بعض النصوص القرآنية، مما له الأثر البلاغي الذي يعطيه ذلك التقديم والتأخير، أو التغيير في بنية الجملة، طبقاً لما يتناسب والغرض البلاغي الذي صيغت من أجله تلك الجمل.

إنّ حصول التقديم والتأخير في صياغة الجمل يجوز لأجل بيان أمر محدد، أو زوال الالتباس عن المتلقي في معرفة المقصود من تلك الجملة، وبالتالي يحصل التقديم للإشارة الى ذلك (الوراق: ١٩٩٩م: ١: ٢٧١)، والذي يحدد التقديم هو السياق النصي للجملة، فعند احتمال حصول التقديم في النصوص العربية عموماً، والقرآنية على نحو الخصوص يُنظر الى سياقها ومقامها الذي قيلت فيه، وكيفية وضعها في السياق، وتقدّر كل حالة بقدرها الخاص (السامرائي: ١٩٨٦م: ٢٥٤)، لذلك، لا يصح التقديم الا مع وجود قرينة صارفة ودليل قطعي على بيان المراد (الداني: ٢٠١٠م: ٤٧٣)، أي أنه يجوز تقديم ما حقه التأخير مع نصب قرينة على ذلك، ومع عدمها يحصل اللبس، فلا يجوز التقديم؛ لأنه سيوهم متلقي النص، فالتقديم والتأخير انما يكونا إذا لم يجز غيرهما (النحاس: ١٤٢١هـ: ١٥٧)، وفي بعض الحالات التي يحصل فيها التقديم والتأخير يصلا في النصوص الى مرحلة تضاهي بها الأصل في صياغة بنية النص، في قوة التماسك والتأثير الدلالي البلاغي فيه (جني: ١٩٩٨م: ٢٩٩).

فمثلاً، الأصل في الجمل الفعلية أن يكون الفاعل متقدماً على المفعول به؛ ليتنزل الفاعل من فعله بمنزلة الجزء، لكن هنالك بعض الحالات البلاغية التي يتقدم فيها المفعول به على فاعله لبيان أهمية المفعول به، دون الالتفات الى شخص الفاعل، أو يكون تقديمه لعلو مكانته، أو لشرفيته، ونحو ذلك من الأغراض الموجبة والمجوزة للتقديم في صياغة الجمل العربية، أو يكون التقديم للأهمية والبيان، فهو المعني والمقصود، كالفعل الذي لابد أن يقع، دون الاكتراث الى فاعله، فهنا يكون التقديم لأهمية ذلك الفعل (الجرجاني: ١٤٠٥هـ: ١: ١٠٧)، أو يكون التقديم للعناية، فيكون ذكر المتقدم أهم، دون الالتفات الى مصدر العناية وسببها، ودون الالتفات الى حيثية الأهمية.

ويرى الجرجاني (الجرجاني: ١٤٠٥هـ: ١: ١٠٦) أن التقديم والتأخير في صياغة الجمل العربية يكون على ضربين:

الأول منهما: يكون مع نية التأخير، ويكون في كل شيء أقررته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه، وفي جنسه الذي كان فيه، كما في خبر المبتدأ عند تقديمه عليه.

والثاني منهما: يكون لا على نية التأخير، ويتم بصورة نقل الشيء من حكم الى حكم آخر، واعراباً يغاير اعرابه الأول، فيحتمل حينها المتقدم الوجهين، إذ كل منهما يمكن أن يكون المتقدم دون احداث أي خلل في الجملة، وبقاء الغرض البلاغي في كلا الصياغتين عينه.

الأغراض البلاغية للتقديم والتأخير:

من الشواهد القرآنية على حصول التقديم والتأخير بسبب القراءات المتعددة، ما ورد في قوله تعالى: (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ) (البقرة: ٣٧)، ففي الآية المباركة توجد قراءة لابن كثير جاءت بنصب الاسم "آدم"، ورفع الاسم "كلمات" (السفاقسي: ١٩٣٤م: ٣٨)، وهي خلاف قراءة المشهور التي ترفع الاسم "آدم" وتنصب الاسم "كلمات" (الجزري: ٢٠٠٧م: ٢: ١٥٩)، فقراءة ابن كثير أسندت الفاعل الى "كلمات"، بينما المفعول به "آدم"، فيكون المعنى: أن الكلمات التي ألهمها الله تعالى الى آدم عليه السلام هي التي تلقته، وكانت السبب في نجاته وقبول توبته، فالكلمات هي الفاعل، والمستفيد من الفعل، أو من وقع عليه الفعل هو آدم عليه السلام (القيسي: ١٩٨٧م: ١: ٢٣٧)، بينما قراءة جمهور القراء، التي جعلت من الاسم "آدم" هو الفاعل، ومن الاسم "كلمات" هو من وقع عليه الفعل، والمستفيد منه، أي المفعول به، فيكون المعنى: أن آدم عليه السلام هو من تلقى الكلمات هذه من الله تبارك وتقدس بنفسه، وقد استقبلها بالفهم، وقد حفظها، فكان النبي آدم عليه السلام هو القابل لهذه الكلمات، والكلمات هي المقبولة (خالويه: ١٤٠١هـ: ٧٥)، فتقديم المفعول به "آدم" – بناء على هذه القراءة – تشير الى سر اللطف الإلهي للمتلقي بشمول رعاية الله سبحانه له، وعلو المقام بعد التوبة، مما يشكل التقديم ملمحاً بلاغياً قرآنياً في دلالة الاستعمال القرآني (الهمذاني: ١٤١١هـ: ٣: ٣٦٨)، ودلالة "التلقي" تشير الى مطلق الفهم والفطنة، والاحتواء على اسرار العلم ومكامنه، والدقة في النظر عند التائب (النيسابوري: ١٩٩٧م: ١: ٦٥)، لذلك لا يكون مقام التوبة متحققاً الا بالعلم والفهم والفطنة، أي حضور العقل بعد غيابه حال المعصية، أي الصحوة عن الغفلة المهلكة، وهذا مما يكشف الحزم والعزم على العودة والأوبة لله تبارك وتقدست اسماؤه، الحاصلة من النبي آدم عليه السلام (السفاقسي: ١٩٣٤م: ٤٢).

جدير بالذكر أن لفظة "كلمات" الواردة في النص القرآني قد وردت منكرة، أي مبهمة، فهي نكرة في سياق الاثبات، وهذا ما يدل على عموم الابهام، فالتغاير في القراءتين في صورة التقديم والتأخير تبرز جمال التقابل الوظيفي بين عناصر اللغة العربية (الابياري: ١٤٠٥هـ: ١٨٥)، وهذا الخلاف في تفسير سياق الجملة الناتج من تعدد القراءات لهو خير شاهد على معنى الخفاء (الرازي: ١٤٢٠هـ: ١٣: ١١٤).

فدلالة التقديم والتأخير تبرز جمالية التقابل الخفية بين العناصر للجملة العربية، فالمقدم مؤخر والمؤخر مقدم، ومع ذلك بقى المعنى ثابتاً لم يتغير (الأزهري: ١٩٩٦م: ١: ٤٩)، وهذا ما أدّى الى بيان جمال التقابل بين اللفظين، محققاً بذلك أسلوب القصر، عِبر التخصيص المبطن بخفاء الاصطفاء لآدم عليه السلام(السكاكي: ٢٠٠٧م: ١٣٣)، ويمكن القول أن قراءة التقديم والتأخير تكون وصف الفاعلية للنبي آدم (عليه السلام) تشير الى حرصه على التلقي، الذي هو السبب في توبته، من خلال دلالة الحرف "الفاء" على التفريع، وقوة الاهتمام بتوبة المبتلى وتصوير ملامح نفسيته (النيسابوري: ١٩٩٧م: ١: ٩٣).

ويمكن التوفيق بين القراءتين والجمع بينهما، فبعد أن علم الله تعالى حرص نبيه آدم عليه السلام على استقبال الكلمات الشرعية بالتوبة، اصطفاه تعالى الى الخير والى النبوة، واجتباه الى العلم النافع، وقد هداه الى العمل الصالح، فكانت هذه الكلمات هي حبل القبول، إذ كانت هذه الكلمات الكونية هي مصداقاً للتوفيق الإلهي لعبيده، وعليه، لا يؤثر التقديم والتأخير بين القراءتين، فالمعنى الدلالي منهما واحداً، وهو أن آدم عليه السلام قد تلقى الكلمات، التي بسببها حصلت التوبة عليه، وكانت سبباً في تكامله، ورفعة منزله، واصطفاءه على خلقه حينئذٍ.

ومن الشواهد القرآنية الأخرى التي حصل فيها التقديم بسبب القراءات المتعددة، ما ورد في قوله تعالى: (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ) (البقرة: ٢١٠)، فقد قرأها مشهور القراء برفع "الملائكة" عطفاً على اسم الجلالة (الاندلسي: ١٤١٣هـ: ٢: ١٢٥)، مع الفصل بين المعطوف

والمعطوف عليه بحرفي الجر "في، من" ومجروريهما (البناء: ٢٠٠٦م: ١٥٦)، بينما قرأ أبو جعفر البصري الآية السابقة بجر "الملائكة" (الاندلسي: ١٤١٣هـ: ٢: ١٢٤).

فقراءة المشهور يكون معناها: ما ينظر هؤلاء من تلك البينات الا إتيان الله تبارك وتعالى لهم بقطع من السحب البيضاء، ومعه الملائكة؛ ليجاريهم على كفرهم وتعنتهم (الاندلسي: ١٤١٣هـ: ٢: ١٢٥).

ومن الشواهد القرآنية الأخرى التي حصل فيها التقديم بسبب تعدد القراءات، ما ورد في قوله تعالى: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ) (الانعام: ١٠٠)، تعددت القراءات القرآنية للآية السابقة، التي حصل بسببها تغيير حركات بعض كلمات الآية، بسبب التقديم والتأخير الحاصل فهمه من سياق الآية، ففي كلمة "الجن" تعددت قراءتها بين القراء بين الرفع (الاندلسي: ١٤١٣هـ: ٤: ١٩٣)، والنصب (الفراء: ١٩٩٦م: ١: ٣٤٨)، والكسر (الزمخشري: ٢٠٠٥م: ١: ٥٢٠)، فقراءة الرفع بسبب تقدير السؤال: من الشركاء لله تعالى؟ فقيل للسائل المقدر: الجن، وهذا ما يبرزه موضوع الآية الشريفة (الرازي: ١٤٢٠هـ: ١٣: ١١٤)، أو يكون الرفع بسبب كون "الجن" خبر لمبتدأ محذوف تقديره "هم"، فيكون التقدير "هم الجن" (القيسي: بلا: ١: ٢٦٤)، وقراءة نصب كلمة "الجن" بسبب البدل، أي أن كلمة "الجن" بدل لكلمة "شركاء" (النحاس: ١٤٢١هـ: ٢: ٥٢٥)، وهذا القول غير سديد؛ لعدم كمال المراد من الخطاب عند قيام البدل مقام المبدل منه (الرازي: ١٤٢٠هـ: ١٣: ١١٤)، وقد يكون سبب النصب للكلمة "الجن" هو أنها معطوفة عطف بيان على كلمة "شركاء"، فيدل ذلك على حقارة ما عبدوه من الجن (الزمخشري: ٢٠٠٥م: ٢: ٥٢)، وقد يكون سبب النصب اضمار فعل تقديره "أعني" (الفراء: ١٩٩٦م: ١: ٣٤٨)، وقد يكون سبب النصب لأنه مفعول به أول مؤخر، وكلمة "شركاء" مفعول به ثاني مقدم (النحاس: ١٤٢١هـ: ٢: ٥٢٥)، بينما قراءة الكسر للكلمة "الجن" بسبب كونها مضافة، أي أنها مضافة للتبين، فيكون تقدير المعنى للآية الشريفة: أشركوهم في عبادته تعالى (الرازي: ١٤٢٠هـ: ١٣: ١١٤).

وعليه، فقد حقق التقديم والتأخير في الآية السابقة وجوه بلاغية متعددة، لا يمكن للقراءة الواحدة إيجاد تلك الدلالات المتنوعة بناء على تعدد القراءات للآية الشريفة.

ومن أبرز تلك الدلالات الاحتراز للمعنى المقصود، من خلال التصرف في بلاغة النص القرآني، فأصل الجملة هو: "وجعلوا الجن شركاء لله"، فتقدم المفعول به الأول "الجن" والمفعول به الثاني "شركاء"، لكن بسبب بلاغة النص القرآني الكريم تم المقصود من المعنى، وهو انكار كل معبود سوى الله تعالى، سواء من الجن، أو من باقي المخلوقات، وهذا المعنى يفهم بسبب التقديم، الذي لا يمكن ابراز هذا المعنى فيما لو لم يحصل التقديم في نص الجملة (السقا: ١٩٩٢م: ٢٢٢).

فهذه القراءة المبنية على التقديم تنكر كل الشركاء لله تعالى دون أن يتخصص الشركاء بالجن فقط، وهذا التوجيه البلاغي الحاصل بسبب التقديم يكون أتم للمعنى من الصياغة الاصلية للجملة "وجعلوا الجن" شركاء لله"، التي تحتاج الى نص قرآني آخر؛ ليقوم بنفي العبادة عمّا سوى الله تبارك وتعالى (السقا: ١٩٩٢م: ٢٢٣).

فكانت هذه القراءة بسبب التقديم بين المفردات لها دلالة آيتين قرآنيتين معاً خصصت العبادة لله تعالى فقط، دون سواه من الخلق أجمعين، إضافة الى ذلك، فالتقديم نبّه على كمال الاهتمام بالمعنى المقصود، وهو استقباح اتخاذ معبوداً آخراً مع الله تعالى (العلوي: ١٩١٤م: ٢: ٦٩).

وكذلك تقديم كلمة "شركاء" ليبين منتهى شناعة الشرك بالله تعالى (الزمخشري: ٢٠٠٥م: ٢: ٣٨٠)، فكانت قراءة التقديم كأنها تأتي بكلام جديد ومستأنف، وهو انكار الشريك لله تعالى، وحصر العبادة له (السكاكي: ٢٠٠٧م: ١٣٣).

النتائج:

من خلال الدراسة لموضوع **(الأثر البلاغي لتعدد القراءات القرآنية)** برزت نتائج عدة، يمكن اجمالها بالآتي:

١- برز من هذه القراءات المتعددة للمفردة الناتجة من الحذف والاثبات، والتبديل، أو التقديم والتأخير تعدد الأوجه البلاغية للمعاني المنبثقة من السياق، التي لا تظهر عند القراءة الواحدة، مما تفي بحاجة كل عصر في معرفة تلك المعاني من النصوص، من خلال التبيان البلاغي فيها، لذلك، وهذا ما جعل بعض المفسرين يعتمد قراءة دون أخرى؛ بما يتلائم والوجه البلاغي المسوّغ له، المُبرز للمعاني المقصودة، أو تشير لها صور ذات دلائل بلاغية واضحة ، وهذه الوجوه المتنوعة للصور البلاغية مثلت أفانين البلاغة بصورها البديعة، أبرزت أساليب النظم البلاغية القرآنية، الناتج من تعدد قراءة النص الواحد بين الحذف والاثبات، أو التبديل، أو التقديم والتأخير للمفردة، مع بقاء المعنى واحداً لا تضاد فيه، فتعددت الصور البلاغية الناتجة من القراءات المتعددة، فكان أشبه ما يكون بآيات متعددة أدّت معاني متكثرة بالرغم من كونها نصاً قرآنياً واحداً، من خلال الأساليب البلاغية المتنوعة، مما أبرزت الخصائص البلاغية المتعلقة بالحذف والاثبات، أو التبديل، أو التقديم والتأخير، فوضحت النسيج القرآني المنظّم بلاغياً، وهذا ما يوضح عدم انحصار نصوص القرآن الكريم بتلاوة واحدة، دون ترجيح احدها على الأُخر، أو انكار احداها، وهذا ما يمثل توجيهاً للقراءات القرآنية المتعددة من الوجهة البلاغية.

٢- برزت صور التبديل لبعض الكلمات الحاصل بسبب التعدد أنها قراءات تفسيرية، أو أنها تفصيل لما أجملته القراءة الأخرى.

٣- لا يوجد أي اختلاف يذكر بين القراءات من الوجهة الدلالية، والمعنى البلاغي المقتنص من القراءتين هو عينه في كل قراءة، وعليه، يمكن فهم التبديل الحاصل في بعض المفردات القرآنية بسبب تعدد القراءات القرآنية أنها قراءات تفسيرية في أغلبها، وفي بعض القراءات كان التبديل بصورة حاصلة الاجمال والتفصيل، فقراءة أجملت وأخرى فصلت المجمل، مما يبيّن مدى البراعة البلاغية، فرغم تعدد الكلمات المختلفة والمبدلة بسبب القراءات المتعددة، بقي المعنى واحداً للنص القرآني، مما يشكل ذلك لوحة بلاغية واضحة المعالم، جزيلة اللفظ، تتناسق والبلاغية العربية المدونة في أشعار العرب وخطاباتهم، بل جاءت بصور تفوق ما كتبته الايادي البشرية، فكان ذلك يعجز من كان في عصر النص، ويعجز من جاء بعد عصر النص القرآني، سواء من العرب، أو من المستعربين، أو ممن ينطقون اللغة العربية.

٤- بقاء المعنى الدلالي واحداً رغم حصول التقديم والتأخير في بعض كلمات النص القرآني، بسبب التعدد للقراءات، محقق بذلك وجوه بلاغية متعددة، ناءت عنها القراءة الواحدة.

٥- يكون التقديم في بعض النصوص القرآنية بسبب التخصيص، أو إعادة حسن النظم، أو لبيان التعظيم والاهمية، أو بسبب تقديم المحسوس على المعقول، أو لأجل التنبيه، أو لبيان الأولوية، أو الشمول والاحاطة، أو للتشنيع، وكل ذلك يمكن فهمه عِبر القرائن التي تحفّ النص، أو من خلال السياق، مع بقاء النص ثابت المعنى والدلالة دون أن يطرأ عليه تغيير التضاد أو التناقض.

٦- أن للتقديم والتأخير من الأثر البلاغي الواضح، الذي تنماز به الجملة في بيان أوجه متعددة، لا يمكن للقراءة الواحدة الاتيان به، سيما وأنّ بعض تلك الوجوه البلاغية لها أكثر من معنى دلالي تقوم به، وتبرز المقصود بصورة أكثر ايجازاً للمتلقي، دون الحاجة الى نصوص أخرى فيما لو كانت القراءة واحدة، وبالتالي كانت هذه القراءات المتعددة أحد الأسباب المثبتة للإعجاز البلاغي القرآني في صياغة نصوصه.

المصادر:

- **القرآن الكريم.**

١. اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، أحمد بن محمد بن احمد الدمياطي البناء، تحقيق انس مهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦م.

٢. اسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، مطبعة المقتطف، مصر، ١٩١٤م.

٣. إعراب القرآن، أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي، وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٤. ايجاز البيان عن معاني القرآن، محمود بن أبي الحسن بن الحسين النيسابوري، تحقيق علي بن سليمان العبيد، مكتبة التوبة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

٥. الايضاح في علوم البلاغة، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن الخطيب القزويني، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

٦. البحر المحيط، محمد بن يوسف أبو حيان الاندلسي، تحقيق عادل احمد عبد الجواد وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٧. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، (د. ت).

٨. التحرير والتنوير، ابن عاشور، مركز أثر للتحقيق، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠٠٨م.

٩. تفسير الرازي (مفاتيح الغيب)، فخر الدين الرازي، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.

١٠. تفسير القرآن العزيز، أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن ابي زمنين الالبيري المالكي، تحقيق أبو عبد الله حسين بن عكاشة، مكتبة الفاروق الحديثة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

١١. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٣٧٢هـ، ١٩٥٢م.

١٢. الحجة في القراءات السبع، الحسين بن أحمد بن خالويه، أبو عبد الله، المحقق: د. عبد العال سالم مكرم، الأستاذ المساعد بكلية الآداب – جامعة الكويت، الناشر: دار الشروق – بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤٠١ هـ.

١٣. دلائل الاعجاز، أبو الحسن علي بن محمد الجرجاني، تحقيق إبراهيم الابياري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

١٤. روح المعاني، الالوسي، دار المعارف للطباعة، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، ٢٠٠٦م.

١٥. زاد المسير، ابن الجوزي، دار الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

١٦. علل النحو، محمد بن عبد الله بن العباس الوراق، تحقيق محمود جاسم محمد درويش، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

١٧. غيث النفع في القراءات السبع، السفاقسي التونسي، الطبعة الثانية، ١٩٣٤م.

١٨. فتح القدير، الشوكاني، مركز أثر للتنمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م.

١٩. الفريد في اعراب القرآن المجيد، حسين بن ابي العز الهمذاني، تحقيق محمد حسن النمر وآخرون، دار الثقافة، قطر، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٢٠. القراءات القرآنية تاريخها ثبوتها حجيتها وأحكامها، عبد الحليم بن محمد الهادي قابة، اشراف ومراجعة الدكتور مصطفى سعيد الخن، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.

٢١. القراءات وأثرها في علوم العربية، الدكتور محمد سالم محيسن، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

٢٢. الكتاب، سيبويه، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.

٢٣. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمود الزمخشري، تحقيق مأمون شيحار، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥م.

٢٤. الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق محيي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة، ١٩٨٧م.

٢٥. لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، الحواشي: اليازجي وجماعة من اللغويين، الناشر: دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٤ هـ.

٢٦. لمسات بيانية في نصوص التنزيل، الدكتور صالح السامرائي، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

٢٧. المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات، أبو الفتح ابن جني، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

٢٨. مختصر المعاني، التفتازاني، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م.

٢٩. مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع، ابن خالويه، تقديم آرثر جفري، القاهرة، مصر، مكتبة المتنبي، (د. ت).

٣٠. معاني القراءات، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق مصطفى درويش وآخرون، مطابع دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٩٩٦م.

٣١. معاني القرآن، الفراء، مركز أثر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٩٦م.

٣٢. مفتاح العلوم، السكاكي، دار احياء التراث والعلوم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.

٣٣. المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار، أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني، تحقيق نورة بنت حسن بن فهد الحميد، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.

٣٤. الموضح في وجوه القراءات وعللها، نصر بن علي بن محمد الفسوي النحوي، تحقيق الدكتور عمر حمدان الكبيسي، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

٣٥. النشر في القراءات العشر، شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف، تحقيق علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، بيروت، لبنان، ٢٠٠٧م.